العملية التربوية في العراق ما لها وما عليها

لويس إقليمس
بغداد

مفهوم التربية واسع ومتشعب وجدير بالاهتمام من قبل الجميع، أسرة تربوية ومجتمعًا ومؤسسات تعليمية عامة وخاصة، وجهات تخطيطية ومالية إضافة إلى الدور الرئيس الذي يمكن، بل الذي يتوجب أن يضطلع به البيتُ الأسري ذاتُه قبل كل هذه وتلك. فالبيت الذي يتربى فيه الطفل يمكن عدّه، بل هو النواة الأولى للتربية المجتمعية الصحيحة التي تضعه في الاتجاه الصحيح للخروج من قمقم الدار وأجوائه المنغلقة نحو المحيط الخارجي واللقاء مع محيط واسع مختلف المدارك والقدرات والاتجاهات والأفكار وجهًا لوجه. هذا إذا أضفنا موضوعة إلزامية التعليم للجميع من دون تمييز ولاسيّما في مراحله الأولى. فهو حق مفروض للجميع بموجب الحقوق العامة في الدول المدنية التي تنشد حقوق الإنسان. حدثتني زوجتي قبل أيام، عن مقترحات جديرة بالاهتمام وقابلة التطبيق تختلج أفكارَها من حين لآخر في ضوء ما بلغت إليه العملية التعليمية والتربوية المتهالكة في البلاد التي تترنح على كفّ عفريت منذ عقود. وإنّي إذ لا أشكّ بغيرة أمّ أولادي الوطنية وكفاءتها العلمية ونضجها التربوي أولاً، إلى جانب تصوّرها الصادق لشكل التربية والتعليم والوسائل الطبيعية والسلسة لإنجاحها بغية الإصلاح والذهاب بها نحو تعزيز التنمية ثانيًا، فإني أرى أن مجمل هذه العملية تتطلب قبل كلّ شيء وأيّ شيء وجود أرضية صحيحة وصحية توكل إليها عملية تأهيل عام وصحيح للقائمين عليها وعلى أدواتها المتعددة المعنية. كما لا أنتقص من ضرورة وجود إشراف علمي مطلوب من قبل مختصين وعلماء اجتماع وتربويين جديرين برسم سياسة المناهج التربوية العامة للدولة مع تعزيز الرقابة على مناهج المدارس الخاصة واحتواء نزوعها والحدّ من سلوكياتها خارج المقررات الرسمية الوطنية. هذا إضافة إلى ما يمكن أن تضيفه من فوائد وخبرات، اقترانُ العملية التربوية في بداياتها بمقررات مهنية وفنية ودروس لا منهجية وترفيهية شاملة في الرياضة والموسيقى والزراعة والصناعة والتجارة وتقنية المعلومات والفنون التطبيقية المعروفة القريبة من معترك الحياة، بحيث تعين الطالب لتسهيل خياراته من أجل تشجيعه في بناء مستقبله والارتكاز على مهنة يتقنها ويحبها وتتوافق مع مهاراته الشخصية وليس بفرض مهنة عليه. هنا كان لا بدّ من الوقوف إزاء كل مقترح معقول وقابل للتطبيق. ففي كلّ فقرة ومحور نجد خطوات مهمة ينبغي التريث والوقوف إزاءها لما تحمله من كمّ هائل من النصح والإرشاد والتنويه والتحذير والدعم في الوقت عينه.

التربية الأساسية

من حيث المبدأ، يرى علماء الاجتماع والتربويون أن العملية التربوية تبدأ من البيت الأسري كما أسلفنا، وفيه تقع مسؤولية الأخذ بتربية الطفل رضيعًا حتى يكبر وينمو في العقل والقامة تمهيدًا لإدخاله إلى المراحل الأولى من العملية التربوية التي تبدأ عادة في الدول المتقدمة منذ سن الثالثة وتتدرج لغاية تأهيله للعبور إلى المرحلة الابتدائية حيث من شأنه أن يكون مؤهلاً في سنّ السادسة لتقبّل دروس منهجية منتظمة تؤهلُه للتقدم في درجات التربية والعلوم إلى ما استطاع ذلك سبيلًا بحسب قدراته ومؤهلاته واستعداداته وظروفه الزمانية والمكانية. ومن شأن المتابعة الميدانية للوالدين أن تعزّز من ثقة التلميذ بقدراته وتزرع فيه حبّ طلب العلم والنهم ما استطاع إليه في هذه السنّ الطرية التي تحتاج إلى رعاية أولية خاصة ومثابرة في ذات الوقت. ولكنْ في كلّ الأحوال الطبيعية، يتوجب على الأهل والمتولين أمر التلاميذ المتعلّمين، ذكورًا وإناثًا ومن دون تمييز، من سنّ الابتدائية حتى المتوسطة والثانوية أن يكونوا أكثر يقظة ورعاية وحرصًا على مستقبل أولادهم ويحسنوا التعامل مع حاجاتهم وطلباتهم المتطلّبة أحيانًا في المدرسة أو إزاء الهيئات التعليمية والتربوية أو مع أقرانهم بحيث يخفّفوا من حدّة التمايز الطبقي والتباين في المستوى المعيشي في حالة وجودهما في المحيط المدرسي. وإذا ما نجح التلميذ المجتهد باجتياز كلّ هذه المراحل بنجاح، حينئذ تنفتح أمامه آفاقٌ جديدة، ربما تكون أكثر تعقيدًا، ولكنها أخفّ وطأة في المتابعة والإرشاد بسبب بلوغ الفرد السنّ الذي يؤهله الاعتماد أكثر على نفسه وعلى قدراته الذاتية في استيعاب الأمور وتقرير الصالح من غيره في مسيرته العلمية والأدبية. وهنا فقط، يشعر الأهلون بشيء من الراحة النفسية لنجاحهم بإيصال فلذات أكبادهم إلى سكة الطريق التي تؤهلُهم لدخول المجتمع من أوسع أبوابه بالاعتماد على ما اختزنوه بعد التخرّج من علوم وخبرات اجتماعية وتربوية مفيدة تعينهم في تكوين مسيرة حياتهم.

سياسة تعليمية

نعود لفقرات مهمة تخصّ فلسفة السياسة التربوية والتعليمية للدولة وكيفية إعداد المناهج عبر الجهات المرتبطة بها من حيث المبدأ. فعندما تضع الدولة في سياستها فكرة كونِ العملية التعليمية ركنًا أساسيًا من أركان العدالة الاجتماعية ومن صحة المجتمع ومن تساوي الفرص وبكونها خطوة لا بدّ منها من أجل نقل البلاد إلى قيم التطور والتمدّن وإدخال التنمية المستدامة بفضل ما يستوعبه ويناله الطالب طيلة سنيّ دراسته، تكون قد أخذت هذه العملية مسارها الصحيح حين تطبيقها على أرض الواقع. وهنا تكمن الخطوة الأولى في تأهيل الشخص القائم على العملية التربوية أي في كيفية إعداد المعلم الذي يُعدّ محور العملية التربوية برمتها، حتى في أبسط مظاهرها وصولاً لتقدّمها دراسيًا وعلميًا من خلال إعداده مجتمعيًا وثقافيًا وعلميًا وتعلّمه طرق التدريس الضرورية التي تكفل نجاحه وتفاعله مع الطالب ومع العملية التربوية ككلّ لا انفصال فيهما. فالمعلّم في كل المراحل، بحاجة إلى عملية تأهيل صحيحة وإلى اكتساب مهارات كثيرة تعينه لتقديم أفضل ما لديه لتلميذه وكي يحظى بتقدير الأخير واحترام المجتمع والدولة له ولكفاءته. وإنّي شخصيًا ما أزالُ أحتفظ بشيء كثير من الوقار والاحترام والفخر للعديد ممّن علّموني وزرعوا في فضائل الطاعة والحوار والاحترام إلى جانب مختلف العلوم التي استقيتُها بفضلهم والتي بسببها يخطُّ يراعي في هذا المنبر هذه الكلمات وأقطع بها ما تبقى من شوط في الحياة إكرامًا للعلم والمعارف والخبرات التي أعتزّ بها لغاية الساعة. وكلّ هذا بفضل تربيتي المنزلية أولاً وسهر المربين والمعلّمين الذين توالوا على تلقيني ونصحي وإسنادي. من هنا يأتي الاهتمام بدور المعلّم كي يأخذ قسطه من البرامج التدريبية المستمرة وصولاً للارتقاء بوظيفته إلى أفضل ما يستطيع ضمن نطاق قدراته وقابلياته واستعداداته. حقًا، ينبغي لنا التنويه أن التراجع الذي حصل في العملية التعليمية والتربوية في العراق بعد الاحتلال في 2003ولغاية الساعة لهو إشارة على تردّي هذه العملية في كلّ مفاصلها. بل إنها تعني من جملة ما تعنيه وفاة سريرية للعملية برمتها لا سيّما وأنّ إدارتَها وسياستها ما تزالُ خاضعة لعمليات مساومة سياسية من قبل أحزاب السلطة بحيث أضحت لا تختلف عن أية إقطاعية أخرى للتنافس بصددها، بسبب ما تشكله الموارد المسخرة لها من أطماع وأموالٍ يسيل لها لعاب الساسة.

وأفضل دليل على مثل هذا التراجع يتمثل بوسائل البنى التحتية التي غابت عن الأنظار من مدارس ليس لها من وجود على الأرض في بعض القرى والقصبات والمدن أو تلك التي انتصبت أعمدتُها من دون إكمالها أو حالة الاكتظاظ القائمة في مدارس عديدة تعج بالتلاميذ أو تلك الخالية من أدوات ووسائل إيضاح مناسبة تساعد العملية التربوية مثل الرحلات المدرسية والقرطاسية والمناهج الوطنية والعلمية المستقرّة الهادفة التي ينبغي تهيئتها قبل بداية الدوام في كل سنة دراسية.

هذا إذا ما أضفنا إلى هذه جميعًا موضوع غياب الجدارة وأصحاب الاختصاص في عملية إعداد المناهج التي تعاني من فوضى وارتباك تختلط فيها مشكلة الدين والمذهب والتقاليد العشائرية والقيم المجتمعية البالية التي تحدّ من تطورّها وبناء الإنسان على أسس وطنية خالصة بعيدًا عن كلّ هذه المؤثرات غير المقبولة لدى الشعوب المتحضّرة التي تنشد العلم والتقنية الحديثة والتنمية والتطور في كلّ شيء، وأولها تنمية الفكر وترويض الرأي وتنقيتهما من كلّ أشكال الشوائب الدينية والطائفية والتعصّب.

فشل الدولة

هنا، ينبغي على الدولة أن تقرّ بفشلها في صنع عملية تربوية صحيحة وصحيّة بسبب الصراع المذهبي والتنافس السياسيّ غير الشريف الذي استبعد من سياسته وجود أية استراتيجية تربوية للنهوض بالواقع السيّء المتهالك ليأخذ دوره الطبيعي. فغياب البنية التحتية بكلّ فقراتها وضعف تأهيل المعلّم وعدم الاستقرار في المناهج مضافًا إليه تراجع احترام الشخص القائم على التعليم من جانب المجتمع والحملات التشويهية ضد العملية التربوية وضدّ مؤسسات الدولة التعليمية المتعددة من قبل القطاع الخاص دعمًا لمشاريعهم التجارية تجاه تأسيس مدارس وكليات خاصة، كلّها تساهم في تردّي دور الدولة الأساسيّ في دعم العملية التربوية والتعليمية. كما أنّ المضي غير المبرّر في تقديم تسهيلات وعروض المكرمات من جانب وزارتي التربية والتعليم العالي بهدف تسهيل اجتياز الطلبة الفاشلين بإضافة درجات أو القبول بأداء امتحان الدور الثالث، كلها إشارات على فشل وتعثّر العملية التربوية والتعليمية.

وهنا فقط، على الجهات التنفيذية في الدولة، وحبذا لو توجهت هذه الأخيرة لتشكيل مجلس أعلى للتعليم والتربية في البلاد كي يُعنى بوضع سياسة وطنية قائمة على العلوم والمعارف والخبرات طالما أن الوزارات المعنية غير قادرة على صيانة حقوق الطالب والمعلّم والمؤسسة التعليمية على السواء.

فالتغوّل على حقوق هذه العناصر عبر التوجه السهل للسماح بخصخصة التعليم ليس سوى تنصّل من الدولة ومؤسساتها التعليمية عن أداء دورها الإلزاميّ المطلوب منها. وهنا أخشى مثل غيري، أن تشهد البلاد في السنوات القادمة فراغًا في الكفاءات العلمية والتربوية والإدارية والسيادية والاقتصادية لأجيالٍ بكاملها ولأسباب عدة، منها مغادرة الكفاءات التي تسلحت في الماضي بشتى العلوم والخبرات إلى بلدان المهجر من غير رجعة بسبب عدم استعداد الجهاز التنفيذي للدولة بطاقمه المحصّصاتي القائم منذ السقوط في 2003لكون هؤلاء المغادرين أفضل من الباقين ومن أتباعهم الجهلة الذين تولوا مراتب ومناصب ليست من حقهم. وكذلك بسبب ضعف التعليم القائم وغياب الخبرات المكتسبة سيّما وأنّ أغلب الذين تدّعي الدولة ومؤسساتها خضوعهم لدورات تدريبية وتأهيلية لا تعدو كونها سفرات سياحية للترفيه وكسب مخصصات السفر وزيارة الأهل والأقرباء في الدولة المختارة. وأتحدى أن يُقال بغير هذه الحقائق.

صحيحٌ أن العملية التربوية بدأت في الانتكاسة والركود والإهمال بعض الشيء في عقد الثمانينات حين انشغلت الدولة ومؤسساتها في الدفاع عن الأرض والعرض وصيانة التراب التي استلزمت وقفة وطنية بوجه الشرّ القادم من الشرق، وبعدها بسبب ما عانته البلاد من شرور الحصار الدولي. إلاّ أن مؤسساتها كانت لا تزال قائمة، ومن الإشارة إليها وإلى تفاعلها تحقيقُ القضاء على الأمّية تمامًا وعدّ العراق من أفضل البلدان في المنطقة في التعليم ولاسيّما جامعات البلاد المتقدمة. فيما اليوم ربع البلاد تعاني من أمّية قاتلة ومن تخلّف وتراجع في العلوم وفي القراءة والكتابة. ودليلُنا على ذلك، عدم قدرة العديد ممّن تسنموا مواقع المسؤولية في البلاد بعد 2003على إجادة القراءة والكتابة أو إنّ إجادتهم غير كافية ومن ثمّ فقد استأثروا بدعم الأحزاب التي ينتمون إليها أو تبجحوا بأسباب وحجج ركيكة أخرى بها يدّعون التضحية والخسارة والشهادة.

ولا مناص من التذكير بتقديم العديدين من أمثال هؤلاء شهادات مزوّرة أو أخرى ليس لها علاقة بالاقتصاد والإدارة والعلوم والمعارف التي أصبحوا مسؤولين على إدارة مؤسسات مهمة من غير كفاءة ومن دون وجه حق. وآن الأوان للنظر في كلّ هذه وتلك من منطلق الحرص الوطني ومصلحة البلاد العليا وإلّا فلنْ تقوم للعراق قائمة من غير صحوة جديدة تطالب بتصفية البندر وفرز الشوك والعوسج والزؤان من الحنطة الوطنية الخالصة التي تنتمي للوطن وتجلّ ارضَه وتحفظ كرامة المواطن وتعطي لكلّ ذي حقٍّ حقَّه بعيدًا عن سياسة المحاصصة والمحسوبية والمنسوبية والعشائرية والحزبية والطائفية والدينية والعرقية.

التمثيل الدبلوماسي الحديث للبلدان العربية بالخارج

فؤاد الصباغ
تونس

إن الدبلوماسية في مدلولها اللفظي تعني ذلك الفن في المعاملات والسيرة في الأخلاق من أجل إقناع الطرف المشارك في الحوار التفاوضي بالأفعال ولا بالأقوال فحسب. فمصطلح الدبلوماسية فكريا وإيديولوجيا يعني كملة الدبلوم والتي تلحق بسلك ويعني ذلك "الوثيقة أوالرسالة" التي تحملها تلك البعثة في مهامها الموكلة لها بتلك الدول الأجنبية وعلاقاتها مع الطرف الآخر بحيث يجب أن تتوفر في تلك البعثة حسن السيرة والسلوك من جهة والأناقة واللباقة من جهة أخري. فالمصداقية والشفافية التي تجمع الطرفين علي طاولة التفاوض الواحدة تكمن بالأساس في حسن النية والتلقائية والعفوية قصد خدمة المصالح الوطنية بالدرجة الأولي فوق جميع الإعتبارات بغض النظر عن دائرة التجاذبات الحزبية وغيرها من الأطماع الإنتهازية وطرق الخداع الملتوية. فمنذ مطلع هذه العشرية الأخيرة أخذت الدبلوماسية الحديثة بعدا إستراتيجيا دوليا جديدا بحيث تغيرت في صلبه المفاهيم التقليدية التي كانت تعتمد سابقا علي لغة الدبلوماسية الناعمة، السياسية، التلقائية، السياحية والثقافية وغيرها لتخلق بدورها حديثا نوعا جديدا من الدبلوماسية العصرية والمعروفة بالدبلوماسية الإقتصادية. فبالعودة إلي تاريخ العلاقات الدبلوماسية التي كانت تعتبر في الماضي البعيد أساس العلاقات بين الشعوب العربية وذلك بالإستئناس بسيرة نبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك عندما دخل في تفاوض مباشر مع اليهود فيما يعرف "بصلح الحديبية" وإبرام الهدنة عند الحروب أوكذلك علاقاته التجارية مع المسحيين واليهود بحيث كان يرسل لهم مبعوثا خاصا لفض نزاعاته ويبرم معهم الصفقات والإتفاقيات السياسية والتجارية.

جوهر التمثيل

فهنا يكمن وضع جوهر التمثيل الدبلوماسي العربي الحديث بالدول الأجنبية في إطاره بحيث أخذ مؤخرا طابعا جديدا يولي للمصالح التجارية أهمية كبري من خلال السعي للشراكة الدائمة والثابتة مع تلك الدول عبر التنسيق المكثف بين الحكومات المركزية بدولهم الأم وبين الحكومات الأجنبية أوبين رجال المال والأعمال. إن المتغيرات الدولية خاصة بعد الثورات العربية والإندماج السريع في العولمة الإقتصادية، السياسية والرقمية كانت لها تأثيرات عميقة علي العلاقات الدولية الحديثة بين الدول وأيضا بين الأشخاص. فمما لا شك فيه أن نمط التمثيل الدبلوماسي تغير جذريا عن السابق، كما تغيرت معه أدوات العمل والتفاوض ولا أحد ينكر اليوم مدى حساسية إدارة تلك العلاقات خاصة منها مع الدول العظمي التي تعتبر الجزء الرئيسي والأهم في إدارة الشؤون السياسية للبلدان العربية والتي تصنف ضمن مجال مستعمراتها السابقة من خلال التركيز علي بسط وصايتها عليها مهما كانت النتائج والوسائل المستعملة. فالإستعمار إنتهي عسكريا لكنه لم ينته بتاتا ثقافيا، سياسيا وإقتصاديا بحيث مازالت اليد الخفية لتلك الدول تتدخل في أبسط الجزئيات لأغلب البلدان العربية وترسم لها مخططاتها الإستراتيجية البعيدة الأمد والتي مازالت إلي حد الآن تحفظ فقط مصالحها وتحمي رؤوس أموالها ومستثمريها في تلك المستعمرات السابقة. والأهم من كل ذلك بسط نفوذها علي مصادر الطاقة من غاز ونفط وأيضا جعلها أسواق إستهلاكية لمنتجاتها عبر دمجها في ما يعرف بفضاء التبادل التجاري الحر المشترك. إن التمثيل الدبلوماسي الحديث أصبح اليوم يتأرجح في ميزان العلاقات الدولية بين التفاوض الناجح والتبادل الناجع يعني الإلتزام بربط العلاقات السياسية بالمصالح التجارية من خلال الحفاظ علي المبادلات التجارية والمعاملات المالية اليومية لتلك الدول مع حفاظها علي الأمنها والإستقرارها السياسي الداخلي والتي مازالت تعاني بعضها من بؤر للإضطرابات الأمنية والسياسية وللإختلالات الهيكلية والإقتصادية.

عجلة التنمية

فنهضة الامة العربية لا تتحقق من خلال البكاء علي أطلال الماضي وكبح عجلة التنمية الإقتصادية وخلق الإضطرابات والإعتصامات وتعطيل دواليب حكوماتها، بل تكمن في السعي للتغيير الجدي ومواكبة المتغيرات الدولية والتأقلم معها وتقوية علاقاتها التجارية والمساهمة الحقيقية في تنمية منظومتها المالية والمصرفية. فاليوم تعتبر الديمقراطية التشاركية أنجع طريقة لإدارة شؤون الدول العربية وبناء مستقبلها ووضعها علي سكة الإصلاح الإداري، السياسي والإقتصادي وذلك من أجل تعزيز مكاسبها الوطنية إقتصاديا والحفاظ علي علاقاتها الدبلوماسية سياسيا. فعلي سبيل المثال تعتبر المالية الإسلامية من أهم الطرق للحفاظ علي الإستقرار المالي لبعض الدول التي مازالت تعاني إلي يومنا هذا من هشاشة منظومتها المالية والمصرفية ومن تراكم الفساد داخلها وغياب الحوكمة الرشيدة كليا. فهذا التوجه الإقتصادي الإسلامي يعتبر داعما حقيقيا للإصلاح الجدي خاصة وأن بعض الدول العربية تشهد مؤخرا ركودا إقتصاديا حادا بعد تلك الثورات ومازالت تفتقد للنجاعة في مواجهة تراكم العجز المالي وتفاقم المديونية في ظل بيئة يشوبها الفساد المالي. إن الإقتصاديات الوطنية العربية مازالت متأثرة من تلك الممارسات الرذيلة لحكومات الحقبة الماضية خاصة من جانب رجال المال والأعمال الفاسدين من خلال تهربهم من دفع الضرائب الجبائية وعدم تسديدهم لديونهم البنكية السابقة والمتراكمة من سنين طويلة وتبييضهم للأموال وإستثرائهم السريع والغير شرعي والرشوة والمحسوبية وغيرها من أساليب النهب للثروات الوطنية. فهنا يكمن مربط الفرس "فلا يصلح الله بقوما حتي يصلحوا ما بأنفسهم" وتغيير من جوهر معاملاتهم الداخلية أولا، للحفاظ علي علاقاتهم الدولية ثانيا، ومصالحهم التجارية والمالية ثالثا. ففي هذا الصدد يعتبر التمثيل الدبلوماسي الحديث للبلدان العربية بالخارج مثلثا متكامل الأبعاد وذلك من أجل تحقيق الأهداف الإستراتيجية والمشاركة في تنفيذ المخططات التنموية والتي تتلخص في جوهرها بالأساس في المصداقية – المسؤولية –الشفافية في إدارة العلاقات الدولية. فإذا توفرت تلك العوامل فبالتأكيد ستنهض الشعوب العربية مجددا من كبوتها وتلتحق بركب الشعوب المتقدمة خاصة من خلال تطهير بيتها الداخلي من رموز الفساد والتركيز علي إرساء الحوكمة الرشيدة داخل مؤسساتها الإدارية ومراجعة توجهاتها الإقتصادية خاصة منها في إطار إندماجها في التكتلات الإقليمية والدولية مع التنويع في منتجاتها المحلية وخلق إقتصاد وطني قوي قابل للتماشي مع المتغيرات الدولية وصامد في العلاقات الدبلوماسية وحافظ للمصالح التجارية والمالية الدولية علي المدى البعيد.

> **فمما لا شك فيه أن نمط التمثيل الدبلوماسي تغير جذريا عن السابق، كما تغيرت معه أدوات العمل والتفاوض ولا أحد ينكر اليوم مدى حساسية إدارة تلك العلاقات خاصة منها مع الدول العظمي التي تعتبر الجزء الرئيسي والأهم في إدارة الشؤون السياسية للبلدان العربية والتي تصنف ضمن مجال مستعمراتها السابقة من خلال التركيز علي بسط وصايتها عليها مهما كانت النتائج والوسائل المستعملة. فالإستعمار إنتهي عسكريا لكنه لم ينته بتاتا ثقافيا، سياسيا وإقتصاديا بحيث مازالت اليد الخفية لتلك الدول تتدخل في أبسط الجزئيات لأغلب البلدان العربية وترسم لها مخططاتها الإستراتيجية البعيدة الأمد والتي مازالت إلي حد الآن تحفظ فقط مصالحها وتحمي رؤوس أموالها ومستثمريها في تلك المستعمرات السابقة.**

صفاء السراي .. الوطني الذي قتله الوطن

سنان السبع
بغداد

لا تبدو قصة حياة " ابن ثنوة " صفاء السراي مشابهة لقصص شباب ساحة التحرير وكل ساحات التظاهر العراقية التي تفجرت بالغضب في الأول من شهر تشرين الأول 2019 وحتى اليوم على الرغم من التشابه الواضح في مطالبهم وشعاراتهم واصواتهم، قصة صفاء المتظاهر الثائر لم تكن قصة عابرة من قصص الحالمين بوطن جديد خال من سطوة المليشيات والسلاح المنفلت وسراق المال العام بل كانت قصة كفاح وشجاعة عرفت العالم بحيل عراقي جديد تحرر من عبودية وقدسية رجال الدين والسياسية في عراق ما بعد 2003 " ورغم إن حياة صفاء انهتها قنبلة دخانية اخترقت جمجمة رأسه في فجر يوم 29 أكتوبر في ساحة التحرير ببغداد الا إن قصته لم تنته عند هذا الحد.

متظاهر دائم

شارك صفاء في أغلب التظاهرات التي شهدتها العاصمة العراقية بغداد منذ العام 2011 وحتى تظاهرات عام 2019 التي كانت الأخيرة بالنسبة له، فقد كان صفاء ناشطاً فاعلاً على مواقع التواصل الاجتماعي يتابعه الآلاف من روادها ومن ابرز الداعين الى تغير النظام السياسي الذي بني على أساس المحاصصة الحزبية، وكان مثل زبون دائم على تلك الاحتجاجات الشعبية، حيث بدأها من تظاهرة الخامس والعشرين من شهر شباط 2011 أيام حكم رئيس الوزراء العراقي الأسبق نوري المالكي حيث تعرض الى الضرب بالهراوات والعصي على يد القوات الامنية التي قامت بقمع تلك التظاهرات بكل وحشية، وبعد عامين فقط من هذا التاريخ كان صفاء اول الواصلين مرة اخرى الى ساحة التحرير في تظاهرة عام 2013 حين قرر البغداديون الخروج بتظاهرة طالبت بتقليص امتيازات المسؤولين الحكوميين والنواب إلا إن هذه المرة لم يتعرض صفاء للاعتداء فقط بل تعرض للاعتقال على يد القوات الامنية الموجودة في مكان التظاهرة. ورغم انتهاء فترة حكم المالكي وتغير رئيس الحكومة وكابينته الوزارية عام 2015 الا إن السراي لم يهدأ له بال ولم يغمض له جفن، بل ازدادت حماسته وثوريته وبات يتصدر الصفوف الاولى لإي تظاهرة أو وقفة أحتجاجية تندد بالفساد وسوء الخدمات العامة، وقف هذه المرة صفاء مع متظاهري بغداد الذين خرجوا في الحادي والثلاثين من تموز عام 2015 والتي كانت شرارة انطلاقتها لتأيد تظاهرات محافظة البصرة جنوب العراق التي شهدت مقتل المتظاهر الشاب منتظر الحلفي ولم يسلم السراي هذه المرة أيضاً من الضرب، حيث كان قد تعرض الى الضرب مرة جديدة بالهراوات من قبل قوات الأمن، كما شارك في تظاهرة أصحاب البسطيّات بعد حملة إزالة نفذتها السلطات في العام نفسه.

تمر سنوات العراق الجديد بترفها ونعيمها على المسؤولين الحكوميين والنواب مثلما تمر ببؤسها وعوزها وحرارتها اللاهبة على الناس وأبناء الطبقات المسحوقة، والثائر لا يتغير ولا يمل، ينظر نحو المستقبل بخيط من الأمل والحرية، رغم انه عاش فترة عصيبة ومؤلمة جداً بعد وفاة والدته " ثنوة حسن فرحان " عام 2017

في العام 2018قرر السراي مرة اخرى الالتحاق بركب المتظاهرين الذي تجمعوا في مناطقهم الفقيرة شرق العاصمة بغداد وأعتقل هذه المرة أيضاً ومن ثم أطلق سراحه.

لحظة السراي التي كان يتمناها قد حانت، حين قرر الشباب العراقيون النزول الى الساحات في الأول من تشرين الأول العام 2019 اللحظة التي لطالما تمناها صفاء بحسب ما يقولوه أصدقاؤه قد باتت امامه عينه اليوم، شباب من كل الأعمار والأجناس والقوميات وقفوا حول علم واحداً وخلف مطلب واحداً ملأوا الساحات به وهو " نريد وطن " وبالطبع كان السراي اول الحاضرين لتظاهرة الأول من شباط برفقة أصدقاءه، وفي اليوم الثاني من التظاهرة حين ارتفع منسوب الأمل لديه قال بتصريحات صحفية " إنها مظاهرة شبابية بامتياز، وخالية من التوجه الحزبي أو الوجوه التي تباعُ وتُشترى ". وفي 26 أكتوبر، أصيب في المظاهرات بذراعه وضاع هاتفه، بحث عن اصدقائه طيلة تلك الليلة، بعضهم ظن انه قتل وآخر ظن أن المليشيات المسلحة قد اختطفته، حتى ظهر مرة اخرى صباح اليوم التالي بجرح في يده وكتب على صفحته في فيسبوك " رجعت ، وأنا بخير ، وأسف قلقتكم ، امس ضاع تليفوني بـ 11 الصبح وانجرحت جرح بسيط ، وما كدرت اتواصل وياكم ".

الفنان – العرضحالجي

على الجانب الأخر من حياة صفاء السراي الذي ولد في بغداد عام 1993 وتخرج في الجامعة التكنولوجية، كانت لا تخلو من الشعر والفن والرسم رغم صعوبتها، حيث كان يعمل خلال سنوات دراسته حمالاً في سوق جميلة التجاري، وأكمل دراسته بدون اي سنة رسوب وتخرج مبرمجاً من قسم علوم الحاسبات في الجامعة التكنولوجية، وبعد تخرجه في الجامعة عمل في كتابة العرائض الرسمية " عرضحالجي " حسب ما يطلق البغداديون على أصحاب هذه المهنة امام احدى مديريات المرور وهي مهنة لا علاقة له بدراسته الجامعية لكنها تكشف حال العراق الجديد لمن لا يعرف بأحوال هذه البلاد العجيبة. كان صفاء يكتب الشعر الشعبي والفصيح على نطاق ضيق بين الاصدقاء، وملهمه في الشعر والحياة الشاعر العراقي مظفر النواب الذي كان يحفظ قصائده عن ظهر قلب، لكنه كان فناناً موهوباً ورساماً ماهراً، فقد كان يرسم فنانين ورياضيين وشعراء أثروا به وفي ابناء جيله، وشارك أيضاً في مهرجان "أنا عراقي أنا أقرأ "2018على حدائق ابو نؤاس في بغداد ، بمعرض فني كان الأول له عرض خلاله جزء من أعماله الفنية التي قام بتوزيعها الى الزوار بعد انتهاء المهرجان.

ابن ثنوة

علاقة صفاء السراي بوالدته كانت علاقة غير اعتيادية بإمتياز حتى انه كان يحب ان يلقب بـ " ابن ثنوة " وهو أسمها " ثنوة حسن فرحان " ، لقب رافقه حتى نهاية حياته، كان تأثير " ثنوة " عليه كبيراً وطاغياً في حياته حين كان يشارك صوره معها على صفحته في فيسبوك، وفي احد المرات كتب على صورة تجمعهما إنها وورغم مرضها الصعب وعدم قدرتها على فعل اي شيء كانت تطلب منه مساعدتها من اجل ان تعمل له الفطور، وهذا التأثير يعرفه أصدقاءه المقربون وكل من كان يتابعه حين كان يردد بقسمه عند مشاركته في أي تظاهرة "قسماً بروح ثنوة"

عاش صفاء في الم متواصل منذ عدة أعوام بسبب مرضها، حيث أصيبت بـ 4 سرطانات مختلفة في الدماغ والعظام والثدي والغدة الدرقية، وظلت لفترة مصابة بشلل نصفي وفقدت الذاكرة والإحساس، حتى توفيت في ديسمبر ?2017ورغم أن والدته كانت حبه الأول والأخير، إلا أنه كتب في رسالة لأحد أصدقائه، نشرها بعد وفاته، عندما سأله عن حبه الأول قال "ثنوة"، لكنه عاد وقال إنه يحب العراق أكثر من ثنوة والدته، بعد وفاتها كان دائم الاشتياق لها وعبر عن ذلك في مرات عديدة بصور وكلمات كتبها قبل ان يغادر بلقبه الذي أصبح يعرف به بين صفوف المتظاهرين والاصدقاء والمعزين.

المتظاهر الصحفي

لم يكتف صفاء بدروه في نشر صور ومقاطع الفيديو عن الاحتجاجات الشعبية التي شارك بها منذ العام 2011على صفحته في فيسبوك بل اخذ دوراً جديداً خلال تظاهرات تشرين الأول، بعد ان عملت الحكومة على قطع خدمة الانترنيت عن المواطنين خلال الايام الاولى للتظاهرات ومنع اضاءات القنوات الفضائية والتضييق على عملها في ساحة التحرير ببغداد، تطوع صفاء مثل عادته بمهنة جديدة حيث أصبح هنا المراسل المتظاهر الذي أخذ على عاتقه توصيل أشرطة الكاميرات الى مكاتب القنوات الفضائية المحلية ومنها فضائية ان ار تي عربية حيث كان يسعى من خلال هذا الدور الى فضح انتهاكات القوات الأمنية وعمليات القنص التي جرت ضد المتظاهرين في الأسبوع الأول من التظاهرات في ظل غياب عدد كبير من وسائل الاعلام الرئيسية عن تغطية تلك الأحداث، ويقول بهاء كامل صديق صفاء عن هذا الدور " كان لصفاء دور مهم في نقل ما يحدث في الساحة في الأيام الاولى من التظاهرات حيث كان يتنقل بدرجة نارية من شارع لشارع ومن زقاق لزقاق حتى يوصل اشرطة الكاميرا الى احدى القنوات الفضائية من اجل بث تلك اللقطات "، ويضيف " كان بمثابة المتظاهر المراسل الذي يتظاهر تارة ويرسل الاشرطة تارة اخرى ".

يومه الأخير

في عصر يوم 29من شهر تشرين الأول وحين بدأت الاحتجاجات تشهد زخماً كبيراً من أبناء مدن العاصمة العراقية بغداد، كان صفاء السراي يقف شامخاً أمام قوات مكافحة الشعب امام جسر الجمهورية، ساخراً منهم وهم يطلقون قنابلهم الدخانية والصوتية بشكل عشوائي تجاه المتظاهرين العزل، جرأة السراي في ذلك اليوم لم تكن تختلف عن جرأته في مواقف عديدة في حياته إذ كان دائم الإشتباك مع الأعلاميين والكتاب الذين لديهم مواقف ضبابية من الاحتجاجات وكان يطالبهم بموقف أكثر وضوحاً وشجاعة تجاه أحوال البلاد وسياسات السلطة الحاكمة، لم يتوقع صفاء او حتى اصدقائه بأن ذلك اليوم سيكون الأخير له في معشوقته " ساحة التحرير " حيث كان عناصر قوات مكافحة الشغب دقيقين جداً بإصابته، أصيب صفاء السراي ليل يوم 29 أكتوبر بقنبلة دخانية اخترقت جمجمته واستقرت بمنتصف الرأس في ساحة التحرير ببغداد، وحدثت ضجة واسعة في مواقع التواصل الأجتماعي في تلك إذ إن المتظاهر الثائر لم يشف من أصابته في يده بعد، نقله المتظاهرون إلى مستشفى الجملة العصبية، حيث تم إخراج الشظايا من رأسه، وإيقاف النزف، وتم نقله إلى العناية المركزة، وتقول صديقته الطبيبة ايناس عن تلك اللحظات " كنا في الأسعاف متوجهين الى المستشفى حين سمعت بأن شخصاً قد دخلت قنبلة مسيلة للدموع في رأسه، وحين وصلت وجدت العديد من أصدقائي.. هنا شعرت بالخوف جداً، توجهت الى العناية المركزة، مسكت بيده وقلت له لا تخف رغم انه كان فاقداً للوعي، ذهبت الى اخيه الكبير وقلت له بأن صفاء سيموت فرد عليّ " فدوة " فارق صفاء الحياة عند منتصف الليل متأثراً بجراحه، وجيء بجثمانه الى ساحة التحرير بحسب وصيته لأصدقائه إن يشيع في الساحة تحت نصب جواد سليم ويدفن بجوار والدته، طافت سيارة تشييعه في الساحة وكانت حفلة للدموع والحزن فالثائر الذي لم يتخلف عن اي احتجاج شعبي في هذه الساحة يودعها الان محمولاً على الأكتاف وملفوفاً بعلم العراق، اتجهت السيارة نحو طريق شارع السعدون الى النجف الأشرف حيث مكانه الأخير إلا إن صوره قد ملأت الساحات وشعاره " محد بهذا العالم يحب العراق بكدي " صار أيقونة الاحتجاجات العراقية الجديدة.